# انتقال إمارة الحج العثمانية إلى دمشق
# منذ مطلع القرن الثامن عشر

السبت، ٢١ نوفمبر ٢٠٠٩

أنيس الأبيض *

خلال فترة حكم العثمانيين، شهدت بلاد الشام تطوراً مهماً يتعلق بانتقال إمارة الحج إلى دمشق وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ العام ١١٢٠هـ (١٧٠٨ – ١٧٠٩م). وترتبت على انتقال إمارة الحج إليها نتائج عدة، فمن المتفق عليه أن مدينة دمشق كانت منذ القدم مركزاً مهماً لكل القادمين من مناطق الساحل الشامي والقاصدين بلاد الحجاز ومنطقة الرافدين. وهذا التلاقي البشري المتنوع جعل منها قاعدة اقتصادية وحضارية تتجمع فيها عناصر شتى من شعوب هذه المنطقة التي دأبت على السفر والترحال بدوافع اقتصادية ودينية لأداء فريضة الحج وممارسة شعائرها الدينية في بلاد الحجاز. وأهمية هذا التلاقي أنه يتيح لكل العناصر أن تتحاور وتتبادل الآراء طوال مدة الإقامة وأثناء السفر، وهذا ما لم يعد متوافراً في هذه الأيام نتيجة التطور العلمي الهائل المتمثل باستخدام الطائرات وغيرها من الوسائل الحديثة، الأمر الذي قصر المسافة وقلّل المدة الزمنية التي تفصل بين بدء انتقال الحجاج من أقاصي العالم الإسلامي وانتهاء وصولهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وعودة إلى الحديث عن التطورات التي رافقت انتقال إمارة الحج إلى دمشق خلال فترة الحكم العثماني نرى ازدياد نفوذ الانكشارية في تعيين الدولة بعض أفرادها أمراء لقافلة الحج الشامية. وبعد نجاح الأمير فخر الدين الثاني بالقضاء على نفوذ الأمراء المحليين، الذين كانوا يعينون أمراء لقافلة الحج الشامية، منذ الربع الأول من القرن السادس عشر، ضعف هؤلاء الأمراء وأصبح الانكشارية بازدياد سلطتهم يعينون أمراء لقافلة الحج للحفاظ عليها. وأدت هذه التطورات إلى تناقص تعيين الأمراء المحليين في ولاية الشام أمراء للحج وإلى تزايد تعيين إنكشارية دمشق في هذا المنصب.

إلا أن تطور الأحداث الداخلية في الدولة العثمانية وما رافق ذلك من تدهور وضع الانكشارية بعد عام ١٦٦٠، دفع الإدارة العثمانية إلى تعيين موظفين عثمانيين إلى جانب بقايا الأمراء المحليين، لإمارة الحج. ونتج من هذا التنوع في هويات أمراء الحج عدم استقرار في علاقتهم مع البدو مما دفع هؤلاء إلى مهاجمة قافلة الحج، خصوصاً أن الموظفين العثمانيين المعينين أمراء للحج لمدة عام أو نحو ذلك، غالباً ما امتنعوا عن دفع «الصر»، أي المال المخصص من الدولة لشراء رضا البدو.

كما يلاحظ أيضاً أن بعض المعينين لإمارة الحج عينوا في الوقت نفسه حكاماً على صنجق أو أكثر من الصناجق التابعة لولاية الشام. وهذا استمرار لتقليد شاع في النصف الأول من القرن السابع عشر حين عين أغلب أمراء الحج من حكام هذه الصناجق. وكانت العادة أن يأتي أمير الحج حاكم الصنجق مع قواته إلى قبة الحج الواقعة جنوب حي الميدان في دمشق خارج «باب الله»، وسمي بذلك لأنه يؤدي إلى الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس، لتسلم قيادة قافلة الحج.

واستفادت دمشق من عدم دخول أمير الحج إليها لأنها سلمت من تعديات القوات المرافقة لـه. وحين عين الموظفون العثمانيون أمراء لقافلة الحج لم يعين جميعهم حكام صناجق، لذلك أقاموا مع قواتهم في دمشق، وعانى الدمشقيون نتيجة ذلك من وجودهم. ويذكر عبدالكريم واثق فـي كتابه «العرب والعثمانيون» أن هذا الأمر حفّز الشيخ مراد المرادي للطلـب مـن الـسلطان العثماني رفع إمارة الحج عن دمشق وعودها إلى حكام القدس وعجلون.

وقد وجهت الى الشريف يحيى بن بركات المكي بمنصب القدس لأنه كان موجوداً في الـروم بعد خلعه عن شرافة مكة المكرمة، فذهب المذكور في تلك السنة أميراً للحج، ولسوء تصرف الشريف يحيى عزل هذا الأخير وأعيدت إمارة الحج إلى دمشق. وكانت إمارة الشريف يحيى للحج من عام ١١٠٢ هـ (١٦٩٠–١٦٩١ م)، وعزل عنها إثر مهاجمة البـدو قافلـة الحـج بسبب إهماله وأصبحت دمشق منذ ذلك التاريخ مركز أمراء الحج، ولكن لـم تعـين ولاتهـا باستمرار على أثر ذلك.

ونلاحظ في الفترة بين ١١٠٢ – ١١٢٠ هـ (١٦٩٠ – ١٧٠٨ م) حين عين نـصوح باشـا والياً على الشام، أن ثمانية على الأقل من ولاة الشام عينوا أمراء للحج. وتزايـدت هجمـات البدو على القافلة في هذه الفترة نظراً لكثرة تبدل الـولاة وطمـع بعـضهم بأخـذ «الـصر» المخصص للبدو لأنفسهم.

ولتأمين سلامة الحج بدأ السلطان منذ العام ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ – ١٧٠٩م) يعين باسـتمرار ولاة الشام أمراء للحج، وكان والي دمشق يبقى في الولاية والإمارة ما دام يؤمن سلامة الحج. ونتجت من نقل مركز إمارة ومن تكليف ولاة الشام هذه الإمارة باستمرار تطـورات مهمـة

تركت آثارها في تاريخ بلاد الشام بكاملها، واعتبر تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج قمـة تطور سياسي وصراع على النفوذ حدثاً في بلاد الشام في القرن السابع عشر.

كما أدى تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج الشامي لاضطرارهم إلى التغيب عن دمشق فترة طويلة. وكان الوالي أمير الحج يغادر دمشق مع القافلة عادة في النصف الأول من شهر شوال ويعود إليها من الحجاز حوالى النصف الأول من شهر صفر، وقد تتأخر عودته أكثر من ذلك إذا ما هدد البدو قافلة الحج وأعاقوا سيره. وكثيراً ما عاد الحجيج فـي مثـل هـذه الحـالات بواسطة الطريق الفرعي عبر غزة، وهكذا وجب على والي الشام - أمير الحج - أن يتغيـب عن دمشق قرابة أربعة أشهر. إلى ذلك قضى تعيينه لهذا المنصب بغيابه عن دمـشق فتـرة أخرى وكان عليه إعادة قافلة الحج وتمويلها بالمال اللازم والذهاب بنفـسه لجمـع الأمـوال الميرية من الملتزمين في ولايتهم.

وكان والي الشام أمير الحج يخرج كل سنة قبيل خروج القافلة بفترة من الزمن، يجمع المـال اللازم لتمويلها، لأنه أصبح المسؤول المباشر عن ذلك وسمي خروجه هذا لجمع المـال مـن الملتزمين في الولاية بـ «الدورة». وفي حين كان تاريخ خروجه للدورة يتوقف على مشاغله ورغبته الخاصة، فإن تاريخ عودته من «الدورة» كان يقرره موعد خروجه مع قافلة الحج إلى الحجاز. وكان الوالي يضطر أحياناً إلى قتال الملتزمين الأقوياء الذين يرفضون دفـع المـال الميري، وتزداد عادة في هذه الحالة مدة «الدورة».

ونظراً لانشغال الوالي بهذه المهمات التي لا يمكن التهاون فيها بسبب طبيعتها الدينية، أعفـي من الخروج مع عساكر دمشق لنجدة الدولة في حروبها الداخلية أو الخارجية، كما كان الأمـر قبل ذلك ولم يحدث في القرن الثامن عشر أن ولاة الشام قاموا بمثل أعمال النجدة هذه.

وعلى غرار التطور الذي أصاب إمارة الحج، فإن أمراء الجردة الذين كانوا يخرجون لتموين قافلة الحج وحمايتها في طريق العودة، عينوا من الموظفين العثمانيين بعد ضـعف الأمـراء المحليين والانكشارية. وفي الوقت الذي أصبح ولاة الشام أمراء للحج انحصرت إمارة الجردة بوالي طرابلس، وفي حالات نادرة بوالي حلب. ويعود سبب كثرة اختيار ولاة صيدا وطرابلس هذه المهمة إلى قرب هاتين الولايتين من دمشق وبصورة أهم إلى كون هؤلاء يمتـون غالبـاً بصلة القربى إلى ولاة الشام.

وما يهمنا هنا أن أمير «الجردة» بعد تعيين ولاة صيدا وطرابلس لهذا المنصب أصـبح يـأتي إلى دمشق بعد شهر على الأكثر من مغادرة أمير الحج لها، وبعد أن يتم استعداداته في دمشق يغادرها في أواخر ذي القعدة أوئل ذي الحجة لملاقاة قافلة الحج. وعلى رغم المصاعب التـي تجشمها ولاة الشام، فإنهم أفادوا من إمارة الحج ببقائهم مدة أطول في مناصـبهم مـا دامـوا يؤمنون سلامة قافلة الحج. وأفادوا أيضاً من الناحية الدينية نظراً لما تمتع به أمير الحج مـن مكانة مرموقة. كما أنهم كسبوا مادياً لأن قافلة التجار كانت ترافق قافلة الحـج. وكثيـراً مـا اضطر التجار إلى شراء حماية أمير الحج لهم من خطر البدو، كما جرت العادة أن ينال أمير الحج حصة كبيرة من أموال الحجاج المتوفين.

وإلى جانب المخاطر التي كانت تتعرض لها قوافل الحج وهي في طريقها إلى الديار المقدسة، لا يمكننا إغفال الآثار الإيجابية التي خلفتها تلك القوافل. فعلى صعيد المعلومات التـي دونهـا وكتبها كثيرون من الذين شاركوا في تلك القوافل أمكننا التعرف إلى يوميات الأحـداث التـي حفلت بها تلك الرحلات، وخصوصاً أن بين من شاركوا في قوافل الحج البرية كتّاباً ومؤرخين ورحالة دونوا ما شاهدوه، ووصفوا مشاهد عمرانية وحضارية للكثير من المدن والأماكن التي

مروا بها، ما أغنى المكتبة العربية سـجلاً حـافلاً مـن المعلومـات الدينيـة والاجتماعيـة والاقتصادية.

* كاتب لبناني